

الخاصة الاجتماعية للشخصية

نستطيع أن نميز بين الذكاء والشخصية بأن الأول هو حدة الذهن ، والثانية هي حدة الإرادة . ونستطيع أن نزيد على ذلك فنقول إن الذكاء أغلبه ان لم يكن كله موروث لا يزيد إلا قليلا أو لا يزيد بتاتا بالوسط . أما الشخصية فأغلبها مكتسب . ثم نزيد على ما قدمنا بأن الذكاء انفرادى - اذا حذفنا من اعتبارنا اللغة - أما الشخصية فلا بد أن تكون اجتماعية .

ويقول الفرنسيون في أمثالهم : " اذفة أقوى من الشراع " لأن الذفة هي التي توجه أما الشراع فتقوة غشيمة قد تحمل السفينة الى الصخرة وتحطمها . وكذلك اشأن في الذكاء والشخصية . فإن الذكاء هو الشراع . هو القوة الغشيمة التي تستطيع أن تؤدي الى الخير أو الشر وإلى الخدمة الاجتماعية أو الى الاجرام الاجتماعى . ولكن الشخصية هي اذفة ، هي التي توجه هذا الذكاء وتستخدمه .

وقد لا يكون هناك أى فرق في مقدار الذكاء الفطرى - وكل ذكاء فطرى تقريبا - بين عالم مكب على اكتشافه في المعمل وبين مجرم يتخصص في الظلام لفتك بالسابلة واعتصاب ما يحملون . ولكن هناك فرقا عظيما لاشك فيه بين شخصية الأول وشخصية الثانى . لأن الأول عاش في مجتمع معين حمله منذ الطفولة على أن يعجب ببعض النقص الذى تشيد بذكر المخترعين أو المكتشفين ثم نشأ على التلمذة في مدارس وجهته وجهة علمية واختلط بطبقة من المعلمين والأساتذة رأى فيهم قدوة فكانوا له بمثابة البوصلة تبين اتجاهه . ومن هنا تكونت شخصيته التى تكشفت في النهاية الى عالم بحائنه بنشد المجد والسعادة والمكانة في موضوع يحتمه في معمله لخير البشر .

أما الثانى الذى لا يقل ذكاء عن الأول فقد عاش في مجتمع معين حمله منذ الطفولة على أن يعجب بتقصص المجرمين الذين سرقوا أو قتلوا وعجزت الشرطة عن القاء القبض عليهم بل لعله في صباه قد ارتكب بعض السرقات الصغيرة في الحقل أو المنزل المجاور . وبدلان أن يجد للظلمة الرادعة من أبيه وجد التستر من أمه . ثم بلغ الشباب فعرف اخوانا له يسرون معه في اقتحامات مختلفة ويدارى بعضهم على بعض فكان هؤلاء الاخوان ذفة وجهته وجهة الاجرام . فنحن هنا إزاء شخصيتين مختلفتين كل الاختلاف مع أن الذكاء قد يكون سواء بينهما لا يزيد أحدهما على الآخر . وإنما هي البيئة الأولى أى المجتمع الأول حين يكون للتأثير الأخلاق عظيمًا ، ثم ما تلا ذلك من مجتمعات ، نصبت أهدافا وعينت غايات .

أذكر أنى عرفت أحد المجرمين وكنت أفاعده وأسامره واستدرجه الى ذكر جرائمه الماضية ، فما كان أشد استغرابى له حين كان يقص على اقتحاماته في هجة الاعجاب

بنفسه بل الحماسة، حتى كان أحيانا يقف من فرط التأرجح العاطفى حين كان يصف بعض المواقف : كيف سرق هذه البقرة، وكيف فر من هذا الخفير، وكيف استطاع أن يخدع السجانين ويهرب الى السجن للثقود والمدخان وغيرهما، ولم ألاحظ عليه قط أنه كان يخجل من ذكر هذه الجرائم أو تداخله ريبة في أنه لم يكن شريفاً . فلماذا ؟

لأنه نشأ في مجتمع كوّن له شخصية معينة هي شخصية المجرم، ولأن هذا المجتمع كان أفراداً يمارسون الجريمة ويقصون قصصها أمامه فيثرون خياله وينصبون أمامه قدوة يقتدى بها ويعينون له هدفاً. وفي أثناء هذه التربية للجريمة يكون قد رسم لنفسه ميزاناً للفضيلة والرذيلة . فالفضيلة عنده هي الجرأة والمكر والتلصص والافتحام والرضى بالعقوبة كأنه بطل أو شهيد والرذيلة عنده هي الاستكانة وأرضى بكسب العيش بالتعب والمواظبة والقناعة بالأجور التي ينالها غيره من أبناء قريته أو مدينته .

وعلى هذا يجب أن نقول إن المجتمع هو الذى يربينا ويكون لنا شخصياتنا . مجتمع البيت أولاً، ثم مجتمع الشارع وصيدان اللعب، ثم مجتمع المدرسة ومجتمع الحرفة، ثم القهوة والنادى والمكتب والجريدة على تقرأ والإذاعة التي تسمع . فكل هذه الأشياء هي مجتمعا الذى يصدمنا في اليوم أكثر من عشرين مرة ويكون لنا أخلاقنا وينبئ شخصياتنا ويوحى إلينا ويقدم لنا القدوة ويعين لنا ما يجب أن نعجب به ونحب، أو ما نستقبح ونكره . ونحن نقيس الشؤون الاجتماعية بأقيسة المجرمين إذا كنا قد نشأنا في بيئة — أى مجتمع — المجرمين . وبأقيسة العلماء إذا كنا قد نشأنا في مجتمع العلماء .

وهذه الأقيسة يمكن أن تتغير بتغير المجتمع، والتغير بالطبع يكون أيسر إذا ابتدأ قبل اكتمال الشباب، ولكنه يمكن مع ذلك حتى بعد هذه السن. فنو أننا نقلنا صبياً من الفلاحين عندنا أو بدوياً من الصحراء إلى نيويورك فلن تمضى عليه سنوات حتى يكتب شخصية أمريكية تراها في كل شيء من أخلاقه، من إيقاع القدمين في السير، إلى الروح الديمقراطية، إلى تعلم الرقص إلى الإيمان بالنجاح المائى إلى غير ذلك من سمات الحضارة الأمريكية .

فالمجتمع الحسن هو المدرسة المثلى لتربية الأخلاق، والمجتمع السيئ هو شر ما يمكن أن يصاب به صبي في طفولته وصباه، والشخصية تتكون بالاجتماع ولا يمكن أن تنمو بالانفراد . وإذا شئنا أن نبني شخصيات سامية للمستقبل فيجب أن ننظر إلى بيوتنا هل هي تُولف فيما بينهما مجتمعات حسنة، وهل الحرب الأهلية القائمة داخل عائلاتنا يمكنها أن تبني هذه الشخصيات، ثم بعد ذلك يجب أن ننظر إلى الشارع والقهوة والنادى والمجلة والإذاعة هل هي جميعها تبني أبناءنا أم تهدمهم .

إن الشخصية ارادة أى نزوات واتجاهات . هي الدفة التي تعين لذكاء وجهته . وإنما تعين هذه الوجهة بما نتعلم من المجتمع الذى نعيش فيه .